

بعض المذاهب الأدبية

للاستاذ عبد الحميد حسن

يذهب الأدباء في تصوير الحياة ومظاهرها مذاهب شتى ترجع فيها بعض الاتجاهات، وتتغلب وجهات من النظر على أخرى، فمنهم من يتجه إلى الحقائق وصورها الظاهرة، ومنهم من ينجح إلى الخيال ويرى فيه التخلص من المادة والتحرر من قيودها، ومنهم من ينظر إلى ما تنطوي عليه الحقائق وما يكمن وراءها من معان وألوان من الأبحار.

ومن هذا نشأت مذاهب ثلاثة وهي: الواقعي، والمثالي، والخيالي. ولكي يتبين منشأ هذه المذاهب نتجه إلى حقيقة الأدب لنرى مدى ما هنالك من صلة بينه وبينها، ولنعرف ما عسى أن تتضمن من اتجاهات أدبية:

ومن المعلوم أن الأدب هو صورة صادقة من الحياة وما يجري في أعماق النفس، فعرفة هذه الحياة والبحث في حدودها، وفهم ما ينمكس من صورها على صفحات النفس. وتفسير ما يكمن في ثنايا مظاهرها من المعاني، كل هذا مجال واسع لقول الأدباء وميدان فسيح لأفكارهم.

وليس الأدباء سواء في اتجاههم، فمنهم من يتجه في إدراك الحياة إلى الحقائق الخارجية الواقعية، ومنهم من يخرج عن دائرة الواقع المحسوس إلى التفسير من ميادين الخيال، ومنهم من يميل إلى جانب المثل العليا، فلا يرى في الحياة ظواهرها الباطنية بل ينفذ إلى ما يكمن فيها بما لا تراه النظرة العابرة. وعلى ذلك نجد الاتجاهات التي أشرنا إليها.

(١) فالمذهب الواقعي أو الادبي الواقعي يصور الحياة الطبيعية المألوفة ويتجه إلى الحقائق الخارجية الواقعية ، التي تستوقف الحواس ويمر بها الناس في حياتهم . وأنصار هذا المذهب هم من يميلون إلى الصريح من الحقائق ، والخالص من مظاهر الكون ، والواضح من ألوان الحياة ، ويجولون في أفق الواقع فلا يهيمون في سماء الخيال ، ولا يخرجون عن نطاق ما يبدو من ظواهر الحقائق ، وهم يرون أن الأدب الخيالي بعيد عن مسيرة قوانين الحياة الواقعية ونظمها ، وينظرون إلى ما فيه من مشوقات وطرائف نظرم إلى ما يتعلل به الاطفال من لعب ومباهج وزخارف .

وهذا المذهب ليس ضيق الميدان كما قد يتبادر ، فإن أصحابه لا يحضرونه في الحياة الحاضرة كما تراها ، بل يتخذون من صفحات الماضي وحياة السابقين مجالا لأدبهم ، وصورا يبرزونها لقرائهم ، وليس أدبهم كذلك خلوا من الجانب الراق من الوجدان الذي تنسج عناصره من الواقع .

ولكن اسرافهم في الجري وراء الحقائق ووقوفهم عند ظاهرها يبعدهم عن حقيقة لها مكانتها في الأدب ، وهي أن قيمته ليست فيما فيه من الحقائق بل فيما تثيره من عواطف ، وما تتضمنه من القوانين العامة للحياة . فالحقائق أشبه بالسلع ليس لها في ذاتها قيمة ، وإنما قيمتها في ارتباطها بحياتنا وفي صلتها بمطالبنا ورغباتنا . وإن الفنون لا ترى إلى عرض الحقائق بل إلى عرض أثرها في نفس الفنان وصيغها بلون جديد من ألوان الحياة الصادقة وكل هذا لا يجد إليه السبيل إذا نحن لم نخرج عن نطاق الحقائق الواقعية الماثلة أمام حواسنا .

وإلى جانب هذا نرى أن الجري وراء الواقع ينتهي بنا إلى حياة جامدة مقيدة بما يحيط بنا من مظاهر وبما يضرنا من تقاليد العرف الذي يملك علينا حواسنا ، ويغلبنا على عقولنا وتفكيرنا ، ويجول بيننا وبين الحقائق البعيدة عن التحوير والتكلف ، ويصرفنا عما قد يكون في الحقائق الواقعية من انحراف أو شذوذ أو اضطراب . وأنا لم أرى ذلك في أنفسنا ، فإن ما الفنا من تقاليد الحياة ، وما يحيط بنا من نظم

المجتمع ومواضعه وعادات أهله يمتزج بنفوسنا ، ويتحكم في تصرفاتنا وسلوكنا ، فلا نرى مانحن فيه مما يتجه اليه النقد وما يتخرف عن الصواب .
على أنا لانقض النظر عما في هذا المذهب من مزايا ، ولعل أوضح ما فيه من محاسن ، وأقوى ماله من أثر هو في هذا الجانب الوقائي . فالأدب الواقعي خير علاج لهذا التورط والتدهور الذي قد تصل اليه الاتجاهات الأدبية التي تتخذ مقياسها من مظاهر صناعية متكلفة لا تمت إلى الواقع بصلة ولا ترتبط بالحياة في صميمها .

٢- المذهب المثالي

وأصحاب هذا المذهب يتجهون إلى الحقائق ، لكن لافى شكلها الواقعي ولا فيما يبدو من مظاهرها الخارجية ، بل ينفذون إلى ما يمكن فيها من المعاني وما يتغلغل في طياتها من ألوان الانحاء ، ويرزون كل ذلك في صورة تسطع من خلالها معان كامنة لا يراها إلا من كشف عن عقلم الغطاء فأروا ما في ثنايا الحقائق ، وما تنطق به من بديع المعاني .

وإننا نرى ذلك فيما حولنا من مظاهر ومناظر ، من تغريد الطيور ، ومتلاطم الأمواج ، وبانع الثمر ، وتناثر الأزهار ، والسحب والكواكب وأنواع الطيور وغير ذلك . ففى كل هذا لا يرى النظر السطحي إلا أضواء وألواناً وأجساماً ، ولكن المثالي يرى فيها آيات رائعة ، ويلح في الصامت من الحقائق بما تقوى الدلالة وفي الثابت ألواناً من الأشعة المعنوية تخرق الفضاء ، وتسبح في الجو فتملؤه بهجة وزودة .

وكذلك ترى المثاليين ينفذون إلى الفطرة الإنسانية فيرونها على صورتها الواضحة ويتبينون ما في تصرفات بني الإنسان وسلوكهم من تكلف أو جود أو نزوع إلى المحاكاة وسهولة الانقياد للمألوف ، والاذعان للأمر الواقع الذي انطبع في مظاهر الحياة ، يتبينون كل هذا فيرفهون أقدامهم لعلاجهم وتحليص العقول من أغلاله ، ويرسمون للفكر الإنساني نهجه القويم .

٣ - المذهب الخيالي

وأصحاب هذا المذهب يحاولون التخلص من قيود الحياة الخارجية ، ويطلقون
لخيالهم العنان فيبرزون من المعاني شتى الألوان ، ويعتمدون للألوف فيغيرون من
أوضاعه وأشكاله ، ويصوغونه صوغاً جديداً ، ويخرجون منه مناظر طريفة ، ولا
يقتصرون في ابداعهم على الطبيعي من المناظر بل يجولون في الميادين النفسى
الاجتماعى فيجسثون بصور من الاخلاق والشخصيات فى مظاهر جديدة وهم فى كل
هذا يسيرون فى حدود القوانين الحيوية والقواعد العامة للانسانية .

ولهذا المذهب مكانة فى الادب ، لما للخيال من أثر فى الابداع وجمال التصوير
أن الكاتب الذى يتخذ من الخيال وسيلة لنحلية أدبه يستطيع أن يتنقل بالقارئ
من أودية من المعاني ، وألوان من طرائف الحياة ، ويسبح به فى عالم يرى كل ما فيه
جديداً ، ويحس بأن حياته قد نهجت نهجاً جديداً ، وأن ما جوله قد اصطبغ بصبغة
جديدة ، وظهر على غير ما كان يعمد ، فيرى البعيد قريباً ، والإقليل كثيراً ، والصعب
يسيراً ، والبعيظ محبباً ، أو يرى عكس كل هذا .

والكاتب الخيالى إذا كان رائده سامى الغايات ونيل المقاصد ، استطاع أن
يكون سرشداً إلى الجديد النافع ، وحافزاً على جليل الاعمال ، ويكون تصويره
اعثاً على النشاط النفسى ، وغوياً على سعة الافق العقلى ، وموحياً بأنواع جديدة من
نظم الحياة ومناجى التفكير . أما إذا اشتط وهام فى ودبان الضلال ، وخرج على
انين الحياة فإن إنتاجه يكون ضعيف الاثر أو منحرف القصد ، وقد يوقظ
واعظف ما يهبطه فينحرف بالخلق عن سواء السبيل .

° ° °

وإذا نظرنا إلى ما بين هذه المذاهب من صلة ، وجدنا أن المذهب الواقعى لا
يخفى المذهب الخيالى فى ميدان ، بل هما متقابلان ، فالواقعى يرتبط بالحقائق ،
الخيالى لا يتجه إليها بل يخلق فى ميدان الابداع والابتكار . والواقعى والمثالى

بينهما صلة من بعض النواحي فنكلاهما موضوعه الحقائق ولكن الواقعي يصورها كما هي في الخارج وفي رأى الحسن . أما المثالي فانه يتفقد إلى باطنها ومعانيها الكامنة

• • •

ولنتلق بعد هذا نظرة سريعة على نصيب الأدباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب ونصيب أدبنا العربي منها . أما الأدباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب فانه يرجع إلى ميولهم واستعدادهم وما أحاط بهم مما يبعث على تنشيط الخيال أو تقييده ، أو إلى تغلب الحياة المادية التي تجذب التفكير وتصرف العقل عن التحقيق في ميادين الجديد المبتكر ، فن الكتب من طبع أدبه بطابع خيالي عميق ، ومنهم من تقتاده الحقائق الظاهرة فينسج منها أدبه ، ومنهم من ينشد المثل العليا ويخرج إلى ما وراء المادى المحسوس ، وينفذ إلى أعماق الحياة وما فيها من مظاهر طبيعية ونظم اجتماعية وعادات وطباع ، ومنهم من يأخذ من كل هذا بطرف فتجلى في أدبه ألوان من الواقع والمثل الأعلى والخيال

ولسنا نريد بهذا أن نجرد أنواعا خاصة من الأدب من الخيال ، فانه من الدعائم ذات الشأن في حسن الابانة وجودة التصوير ، وله شأن في جميع الفنون ، ولا أن نقنع حواجز متيعة بين هذه المذاهب فنحظر أن يعاون بعضها بعضا ، ولا أن نقيّد الأدب بمذهب منها لا يتعداه في جميع أحواله .

• • •

أما نصيب الأدب العربي من هذه المذاهب ، فانا نجد منها ألوانا منثرة في ثناياه ، ونجد من ضروب الخيال قدراً عظيماً يتجلى في أنواع الاستعارة والتشبيه ، وفيما سطره بعض الأدباء من قصص مثل رسالة الغفران للعري ، ورسالة التوايع والزوابع لابن شهيد الاندلسي ، وفي المقامات . ونجد كذلك من حقائق الحياة وروائع الحكم ونواحي المثل العليا قدراً ليس بالقليل متبنا في ثنايا المأثور من نظم ونثر في عصور الأدب العربي المختلفة ولا سيما العصور

الخصبة الزاهية التي تجلي فيها العقل العربي الخالص ، او الذي اصطبغ بما كان
للنصر التي دخلت في حوزة العرب من علم وفن ومدنية . وانا ترك ذلك
للباحث بتعرفه من قراءة فنون الادب العربي في مختلف المراحل من قديم
وجديد .

عبد الحميد صمه
الأستاذ بدار العلوم